الفصل الخامس

إسحاق موسى الحسيني
هذا المثقف الموسوعي

رضوى عبد القادر

من رحم المعاناة يولد الفكر والإبداع الخلّاق، وهذه فلسطين أكبر دليل على ذلك، فهي ولّادة للمفكرين، والمثقفين، والأدباء، الذين أثروا الحياة الثقافية الفلسطينية خاصة، والعربية عامة، وكانت القدس هي الرحم الفلسطيني الذي اختص الكثير من الشخصيات، ذات الأثر البارز في التاريخ العربي الفلسطيني، ولعل من أهم هذه الشخصيات الدكتور إسحاق موسى الحسيني، تلك الشخصية الثرية، الغنية بالكثير من المقومات.

نشأته

ولد إسحاق موسى صالح بن عمر الكبير بالقدس، في حارة السعدية، عام ١٩٠٦(*). وعمر الكبير، جده الأعلى، كان نقيب الأشراف في القدس، وله دور سياسي واجتماعي، واقتصادي ملحوظ في حياة المجتمع المقدسي، لانحدار أجداده ـ فيما رُوي ـ من العترة النبوية الشريفة، وهم الأشراف الحسينيون؛ لذلك امتلكوا حضورًا دينيًّا متميزًا منذ قرون. وبدءًا من ١٨٠٠م تولوا نقابة الأشراف في القدس، وظل هذا المنصب الديني المرموق منحصرًا في أفراد العائلة إلى عهدٍ قريب[١].

أما والده، فكان رجلًا ورعًا مستقيمًا، اشتهر بتصوفه، وقد انتمى إلى الفرقة الرفاعية الصوفية؛ ولذا رغب الوالد في أن يوجه ابنه، إسحاق، وجهة دينية صالحة ، فأدخله الكُتّاب ليتعلم القرآن، وكان أول كُتّاب دخله كتاب جامع الشيخ لولو، ومن بعده كتّاب الشيخ ريحان، ولم يمكث فيه سوى فترة قصيرة؛ لأن والده توفي سنة ١٩١١م، وآثرت

(*) ترى مراجع أخرى أن ولادته عام ١٩٠٤م، ولكن ١٩٠٦م هو الأقرب إلى الصواب.

والدته أن تنقله إلى المدارس النظامية، بعد ما عاناه من عصا الشيخ، وقسوة المعاملة[٢] وقال الحسيني في هذا الصدد: «كانت لشيخنا شخصية قوية، وعصا طويلة، فلم نستطع أن نسأله ... أحسب أنه كان المطلوب أن نحفظ إلى أن يأتي الفهم، لا أن نفهم إلى أن يأتي دور الحفظ»[٣].

في القدس ويافا ترعرع الفتى إسحاق، وفي كتاتيبها ومدارسها النظامية تعلم الابتدائية، أما دراسته الثانوية، فكانت في الرشيدية، التي التحق بها، وهو لم يتجاوز العشر سنوات، ثم انتقل إلى مدرسة بلوز سلطان سليم، وتعلم فيها العربية والتركية، ثم التحق بالكلية الصلاحية، التي أعاد تأسيسها القائد التركي، أحمد جمال باشا، عام ١٩١٥م، وجعلها شبيهة بجامعة الأزهر، في القاهرة، وذلك بسعي من صديق والده، الشيخ عبد القادر المظفَّر، وقضى فيها الفتى سنتين، درس فيهما التربية الإسلامية، واللغة العربية، وبعض مبادئ الفارسية[٤]، إلى أن أغلقت بقرار من سلطات الاحتلال البريطاني، عام ١٩١٧م، فاضطر الحسيني إلى مواصلة تعليمه الثانوي، حيث التحق بمدرسة الفرير الفرنسية، وقضى فيها سنتين (١٩١٨ - ١٩٢٠م)، ثم ثانية بالرشيدية، وكان مديرها، آنذاك، أديب العربية المرموق، محمد إسعاف النشاشيبي، لكن الفتى تركها، بعد فترة وجيزة، ليلتحق بالكلية الإنجليزية (كلية الشباب)، وفيها التقى أستاذه، نخلة زريق، وتخرج منها الحسيني عام ١٩٢٢م. وبعدها توجه إلى القاهرة، فدرس الصحافة في الجامعة الأمريكية، من السنوات (١٩٢٣ ـ ١٩٢٦م)، قبل أن يعود إلى القدس ليعمل مدرسًا في الرشيدية، ثم عاد ثانية إلى القاهرة، ١٩٢٧م، ليدرس في جامعة فؤاد (القاهرة اليوم) آداب اللغة العربية والساميات، ونال ليسانس الآداب (١٩٣٠م). ومنها إلى لندن ليواصل دراسته في «معهد الدراسات الشرقية والأفريقية»، بجامعة لندن، في السنوات (١٩٣٠ـ ١٩٣٤م)، حيث حصل على درجة الدكتوراه، وكان موضوع أطروحته «ابن قتيبة»، وقد نقلها الدكتور هاشم ياغي إلى العربية. وبعد حصول الحسيني على الدكتوراه عاد إلى القدس للعمل في كل من الكلية الرشيدية، والكلية العربية، حيث عُين أستاذًا للأدب العربي في الكلية العربية حتى عام ١٩٤٦م، ثم مفتشًا للغة العربية، في دائرة المعارف العامة في فلسطين، حتى وقوع النكبة (١٩٤٨م)[٥].

الثقافة في مصر

كانت مصر في الفترة التي ذهب إليها الحسيني متأثرة بثورة ١٩١٩م التي قادها سعد زغلول، والتي أدت إلى ظهور أحزاب سياسية في الساحة المصرية، فقد تحركت ثلاثة تيارات: حزب الوفد، بزعامة سعد باشا زغلول، حزب الأحرار الدستوريين، بزعامة عبد الخالق ثروت باشا، وعدلي يكن باشا، وأحمد لطفي السيد، والحزب الوطني، بزعامة حافظ رمضان، وقد مال الحسيني إلى حزب الأحرار؛ لأنهم، كما قال في ذكريات العمر: «يمثلون الصفوة المفكرة»[٦].

لقد أتيحت الفرصة للحسيني، وهو في مصر، فرصة الاستزادة من العلم، وتوسيع آفاق معرفته، عن طريق الدراسة النظرية المنتظمة من جهة، ومن خلال مجالسة الأدباء، والعلماء، وحضور ندواتهم من جهة ثانية. حيث فتحت هذه المجالس أمامه أبوابًا للتفكير، والرغبة الملحة في استكمال ثقافته، فضلًا عن فرصة الالتقاء برموز الثقافة المصرية، وبنفر من أئمة العلم والأدب في تلك الفترة، مثل عميد الأدب العربي، طه حسين، ومنصور فهمي، ومصطفى عبد الرازق، ومحمود عزمي، كما التقى نفرًا من كبار المستشرقين. دأب الحسيني على ترديد: «أنا مدين

لهؤلاء الأساتذة؛ لأنهم نمُّوا فيَّ روح العقلانية، التي نبتت فيّ منذ الصغر». ويستذكر الحسيني حياته في القاهرة ويقول: «عشنا في القاهرة نجمع بين الدراسة الجادة في الجامعة، وبين حضور الندوات السياسية، والمحاضرات العامة، واللقاءات الصغيرة، وفي دارة محمد علي الطاهر(*) الرجل الفذ في شكله، وأدبه، وعلاقته بالناس، وكفاحه المستمر في خدمة القضايا العربية والمشردين»[٧] لثراء ثقافة الحسيني، في تلك الفترة، عمل على تأليف «اللجنة الثقافية العربية» في فلسطين عام ١٩٤٥م ـ وعمل سكرتيرًا لها ـ لرصد الحياة الثقافية في أرض الوطن، كما عملت تلك اللجنة ما بوسعها في سبيل التعاون مع المؤسسات الثقافية في البلدان العربية الأخرى. وقد أقامت تلك اللجنة المعرض الأول للكتاب الفلسطيني في نادي الاتحاد الأرثوذكسي العربي، في القدس، عام ١٩٤٦، وأصدرت كراسًا سجلت فيه أسماء الكتب، والمؤلفين الفلسطينيين والأردنيين، وسنوات طباعتها. فقد بذل الحسيني الجهود لكشف هذا الجانب من التراث العربي، وليبين للناس بأن «القطرات لم تنقطع، والأذهان لم تتوقف، حتى في أشد الظروف قساوة». وقال في هذا الصدد: «فنحن، إذن، لم نتكلف انتحال حياة مفقودة، ولا تجميل وجه بشع، وإنما نبرز حياة أصيلة، وننظمها على وجه يكفل لها الظهور أمام كل عين»[٨].

بعد نكبة ١٩٤٨ وفد الحسيني مدينة حلب، مخلفًا في بيته، ببيت المقدس، مكتبة غنية بأمهات المراجع الأدبية والتاريخية. وفي عام ١٩٤٩م نزح إلى بيروت، وعمل أستاذًا للأدب العربي في الجامعة الأمريكية هناك حتى عام ١٩٥٢. ثم ذهب إلى جامعة مكجيل، في كندا، معارًا من الجامعة الأمريكية ببيروت، وألقى محاضرات في الاتجاهات الإسلامية المعاصرة، وفي عام ١٩٥٥ هبط القاهرة، وتولى تدريس الأدب العربي في الجامعة الأمريكية، وفي «معهد الدراسات العربية»، التابع لجامعة الدول العربية، ثم رئيسا لقسم اللغة العربية في المعهد نفسه. كما أسهم الحسيني في تأسيس «لجنة القدس» للأبحاث والدراسات، وأصبح رئيسًا لها[٩].

ثمرات تقدير مكانته

ظل الدكتور الحسيني مطوَّفا في ربوع مصر، ولبنان، وكندا، فكانت رحلة حافلة بالكشف، والبحث، والمحاضرة، وقد أعانه عليها ذهن متوقد، وبصيرة حاذقة، وصبر وجلد، وحب وتفان. من أجل ذلك حظي بمكانة مرموقة في الأوساط الجامعية الثقافية، في الأقطار العربية، والغربية، التي عمل بها، ومن ثمرات هذا التقدير انتخابه عضوًا عاملًا في «مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر الشريف، سنة ١٩٦٣، وعضوا في المجمع العلمي العراقي ببغداد (١٩٧١)، وعضوًا في مؤسسة «آل البيت» لبحوث الحضارة الإسلامية في عمان، كما اشترك في العديد من المؤتمرات، والندوات، مثل مؤتمرات الأدباء العرب، ومؤتمر الكُتاب الآسيويين الأفريقيين، ومؤتمر تاريخ الأديان الدوري في

(*) ولد في نابلس، ١٨٩٦م. ولجأ في مطلع الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ إلى القاهرة، هربًا من مظالم جمال باشا السفاح، لكن السلطات البريطانية سجنته، سنتين، في مصر (١٩١٥ـ ١٩١٧). عاد إلى فلسطين بعد انتهاء الحرب الأولى، لكنه سرعان ما غادرها إلى القاهرة، ١٩٢٠، حيث ألف «اللجنة الفلسطينية»، وترأسها، ودأب على الكتابة في الصحف المصرية عن فلسطين، كما نسج علاقات وطيدة مع القوى السياسية المصرية، في السياق نفسه، وأصدر، ١٩٢٤، صحيفة «الشورى» لدعم الكفاح الوطني في الأقطار السورية الأربعة، وبعد مصادرة هذه الصحيفة أعاد إصدارها بأسماء مختلفة (الرقيب، المنهاج، الناس، الشباب، العَلَم المصري). وتعرض للاعتقال في مصر سنوات ١٩٢٥، ١٩٤٠، ١٩٤٩)، غادر القاهرة إلى بيروت، ١٩٥٥، حيث توفي، ودفن فيها.

أحمد عمر شاهين، **موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين**، ط ٢، الجزء الثاني، غزة، المركز القومي للدراسات والتوثيق، ٢٠٠٠، ص ٦٧٦ - ٦٧٨.

اليابان، كما قُدِّر الحسيني من بني عروبته حق قدره، وعرفوا ما له من فضل، فمنح «وسام العلوم والفنون» من الطبقة الأولى من جمهورية مصر العربية (١٩٨٣). أما أبناء شعبه الفلسطيني، فقد منحوه «قلادة الضاد»، و«درع فلسطين»، وبايعه الأدباء والكتاب الفلسطينيون عميدًا للأدب العربي الفلسطيني، في الحفل التكريمي، الذي بادر إلى إقامته «مركز إحياء التراث»، في طيبة بني صعب[١٠]. وبعد عودته إلى القدس، عام ١٩٧٣، أسهم د. إسحاق في دفع مسيرة الحركة الثقافية والتعليمية، وكان له نشاط ملحوظ، وإسهام رائد في مختلف الميادين، ومن ثمار ذلك تأسيس كلية جامعية، ومركز للأبحاث الإسلامية في بيت أستاذه، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، كما أخذ يعمل على جمع الكتب العربية من المكتبتين العامة والخاصة، لتكون نواة لمكتبة إسلامية في بيت المقدس[١١].

بناء الشخصية

هذه الشخصية الثرية بأدبها، وفكرها، وعطائها، كانت نتيجة لعدة مؤثرات ثقافية، وعوامل، أسهمت في بناء تلك الشخصية، ونسجها، وتحديد ملامحها.

لعل أسرته أول تلك العوامل ـ كما ذكر الحسيني نفسه ـ التي غرست في نفسه، منذ الصغر، السلوك الحسن، والقيم الأخلاقية الرفيعة، ونمَّت فيه حب الخير، والتمسك بالمبادئ الإنسانية. فكان في تصوُّف والده ما بعث في الفتى عطفه على الفقراء. مما ترك أثرا في إسحاق جعله توسع في خدمة مجتمعه، بل خدمة الإنسانية جمعاء. أما والدته، فقد كانت من أسلم الناس فطرة، وأكرمهن أخلاقًا، وأحناهن على ولد، فضلًا على دقة فهمها، ورقة شعورها، واقتصادها، مع يسر أحوالهم المادية. واعترف الدكتور الحسيني بفضل والدته عليه في هذا المجال، فقد تعلَّم منها الصبر، وتحمل المشاق، كما تشرب التنظيم، والتدبير، والاقتصاد في العيش[١٢].

أما العامل الثاني في تكوين شخصية الحسيني فهو البيئة العلمية، والدراسية، التي نشأ فيها، وإلى المعلمين، والشيوخ الذين نمّوا استعداده، وتعهدوه بالرعاية والتوجيه، ولا سيما أستاذه النشاشيبي، الذي وجه تلميذه، الحسيني، صوب الأدب القديم، ودله على ما يجب مطالعته من كتب المتقدمين في اللغة، والأدب، والتاريخ، وكذلك فعل أستاذه، أستاذ اللغة العربية في الكلية الإنجليزية، نخلة زريق، الذي ما انفك الحسيني يثني عليه، ويحمد له أسلوبه في التدريس، وبث الروح الوطنية، والقومية، في نفس طلابه، كما كان لاتصاله المباشر بالأديب المجدد، خليل السكاكيني، أثر إيجابي ظاهر، خاصة في أساليب التدريس، فالمقصود من التعليم، كما قال السكاكيني: «توسيع المدارك، وتقوية العقل، لا حشوه بمعلومات الأولين والآخرين ليمتلئ، ولكن يبقى صغيرًا»، وقال الحسيني: «كان للسكاكيني دور كبير في إنشاء جيل قوي، يحمل المسؤولية، ويناضل من أجل الحرية، وكان يرى أن الغرض من التربية تنمية روح الاستقلال في الطلاب، وتنشئتهم على العزة والأنفة، والصدق»[١٣]. كما نوّه الحسيني بجهود بعض المستشرقين، وفضلهم في تحقيق، ونشر أمهات كتب التراث العربية، بمنهجية علمية، ارتكزت على الاستقصاء الدقيق، والإحاطة الشاملة، والعناية بجزئيات المباحث، وتقديمها على كلياتها، فضلًا على الشخصيات الأخرى التي تأثر بها، وأفاد منه بطريق غير مباشر، مثل عميد الأدب العربي، د. طه حسين، ومصطفى عبد الرازق، وغيرهم[١٤].

أما العوامل الثلاثة المتبقية، فلا تقل أهمية في تأثيرها عن العوامل السابقة، **وأولها**: نشأته في القدس الشريف،

المدينة المقدسة الخالدة، والوهج المشع على مر العصور، ومهبط الأنبياء، وأولى القبلتين، وثالث الحرمين، وميدان الصراع، ورمزه بين العرب والمسلمين من جهة، وموجات الغزو الخارجي من جهة أخرى.

ولقد كرَّس الحسيني للقدس من جهوده، ومؤلفاته الشيء الكثير، وعني بها عناية فائقة، لما كانت تمثله من هاجس مؤرِّق، ومصدر ألم مستديم له. **وثاني تلك العوامل**: انضمام الحسيني إلى مجمع اللغة العربية ، في القاهرة، مما أثر في مسيرته العلمية، ونمط تفكيره. فيما **تمثل العامل الثالث في**: السيدة الفاضلة قرينته، علوية الحسيني (أم حاتم)، فكان صاحبنا.. يذكرها في كل مناسبة، مشيدًا بفضلها، منوِّها بجهودها، ودأبها على توفير جو عائلي مفعم بالطمأنينة، والاستقرار النفسي، بل كان الحسيني نفسه يحجم عن نشر أي نتاج له دون أن يطلعها عليه لتبدي رأيها فيه، ثقة منه بذوقها العالي ، ورأيها السديد[١٥].

مواهب متعددة

اجتمعت تلك العوامل والمؤثرات لتنتج شخصية متعددة المواهب في مجالات شتى، فكان الحسيني ذلك الأديب، والشاعر، والناقد، والمربي، والباحث، فضلًا على غيرته على اللغة العربية، وشغفه بالعلم، واتصافه بالسماحة، والتواضع.

في الأدب، للحسيني رأيٌ مؤداه: «إن الأدب رسالة إنسانية، قوامها المشاعر النبيلة، والأحاسيس الصادقة، والأفكار السامية، والصياغة اللغوية المتأنقة، فهو بالنسبة للفرد ضرورة من ضرورات الحياة، وللأمة سجلها الذي يحف نبضات قلبها، وأشواق روحها، وإشراف عقلها[١٦]. والأدب الناجح في رأي الحسيني: «لا بد له من شرطين: **الأول**. أن تكون الكتابة إفراغًا بعد امتلاء، **والثاني**: أن يكون الأديب ملتزمًا، وأن يفتح قلبه لخفايا القلوب»[١٧]. ومعنى ذلك أن الأدب والقومية صنوان لا يفترقان، «فإذا قيل إن الأدب لا موطن له، فإننا نقول إن أدبنا موطنه وجدان الأمة العربية، ولسانها المبين في إطاره الخاص، ووجدان الإنسانية كلها في إطاره العام»[١٨]. وكانت دراساته، كما وصفها الدكتور عبد الرحمن ياغي، «مثلًا للنقاء من الحشو، أو من اللغو، أو من التكثر، الذي يزيد الحجم على حساب الحقيقة»[١٩].

أما شعر الحسيني، فامتاز بالبساطة، وصدق العاطفة، والبعد عن الغريب. كما أنه ناقد نصيف، شارك في مسيرة النقد العربي الحديث، بروح نقدية بعيدة عن التصنُّع، جافية عن التكلف، وله في تاريخ النقد جهود قيمة، تستحق الثناء والتقدير، فاستطاع بنقده أن يوجه الأدب الوجهة الصائبة، في الاتجاه الخصيب الأصيل، ليرقى إلى المستوى الإنساني النبيل. فيما تمرَّس الحسيني بقضايا اللغة العربية، وعلومها المتشعبة، وله في هذه العلوم مباحث شتى، دلت دلالة واضحة على ذهنيته الواعية، وعقليته المتحررة، التي نزعت إلى الاجتهاد، وأبت التقليد، كما أنه تبنى الدعوة إلى تجديد وتطوير اللغة، حتى تجاري الحضارة الحديثة، على أن للتجديد، في رأيه، حدودًا لا ينبغي تجاوزها؛ لئلا تسود الفوضى، ويشيع التعصب الذميم بين الناس[٢٠].

فضلًا على ذلك، فالحسيني، قبل كل شيء، مُربٍّ قدير، لجيل كامل، كرّس شطرًا كبيرًا من عمره للعمل في مجال التربية والتعليم، كما وضع للعاملين في قطاع التعليم، والمهتمين به، مؤلفات عدة، واختبارات في تدريس العربية

بجميع فروعها، وفق أحدث الأساليب التربوية، التي ارتكزت على التوجيه والإرشاد، ونبذت التلقين، حيث قال الحسيني: «العلم التلقيني يقتضي، في الغالب، الاعتماد على الذاكرة، يصيبه ما يصيب الذاكرة من ضعف واضطراب، ولهذا يقتضي أن يكون التوجيه من أول مرامي التعليم»[٢١].

ما أدى بالحسيني إلى أن يكون باحثًا مدققًا، ومفكرًا بعيد النظر، عميق التحليل، تحكي بالخلفية العلمية من اتزان، وتواضع، وحيوية، وصبر، وقد اختط لنفسه في أبحاثه ودراسته للظواهر، والقضايا الفكرية، التي مسَّت واقع أمته، منهجًا أصيلًا، اعتمد على العمق، والتدقيق، والاستنباط، والموازنة، والترجيح، وصولًا إلى النتائج، بطريقة جمعت في نسق واحد بين الموضوعية والجاذبية الفنية [٢٢].

وجملة القول: إن شخصية الحسيني حفلت بالعطاء، ولعل أبرز شمائل تلك الشخصية: شغفها بالعلم، وحرصها الشديد على الاستزادة والمعرفة، مع زهد في المظاهر الكاذبة، والمناصب الخادعة [٢٣]، فضلًا على اتصاف تلك الشخصية بالسماحة، والتواضع، والتفاؤل؛ لذا أُولي محبة في نفوس الكثيرين، خاصة طلابه[٢٤]، واكتملت دائرة شمائل تلك الشخصية بصفة التسامح، والمحبة، والنزعة الإنسانية، التي جعلت منه عاشقًا للحرية، وكان مرشده، في كل الآفاق التي ارتادها، الحديث الشريف: «**الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها**»[٢٥].

من أهم مؤلفاته[٢٦]

بتعدد مواهبه وقدراته العلمية، تعددت مؤلفات الحسيني في مجالات شتى: العلمية، والإبداعية، والفكرية، والإسلامية، والتاريخية، والقومية، فضلًا على اللغوية.

أما مؤلفاته العلمية، وكتاباته الإبداعية، فله منها: «ابن قتيبة»، وعنها نال الحسيني درجة الدكتوراه من «معهد الدراسات الشرقية»، بجامعة لندن (١٩٣٤)، ونشرت في بيروت، عام ١٩٥٠م، وترجمها الدكتور هاشم ياغي إلى العربية، ونشرت في المؤسسة العربية للدراسات والنشر، في بيروت (١٩٨٠)، وتعد هذه الدراسة إسهامًا رائدًا في الدراسات النقدية، كما قدمت صورة صادقة عن منهج الحسيني وأسلوبه في البحث العلمي. فيما كانت «مذكرات دجاجة» ألصق أعمال الحسيني به، وصدرت ضمن سلسلة (اقرأ)، في القاهرة (١٩٣٤)، وفازت بالجائزة الأولى، وترجمت إلى الفرنسية، فحققت انتشارها الجغرافي داخل الوطن العربي، وخارجه. وفي هذا العمل تجلى حب الخير، وحب الإنسانية، وطلب الحسيني، بكل حرارة ودماثة، من قراء «مذكرات دجاجة» أن يحسنوا الظن بهذه المخلوقات الوديعة، ويحلقوا معها لبعض الوقت، في عالم مثالي، وأن النعمة هي الحب وحده، وإن وجد تركزت جميع نعم الدنيا فيه، وإن فُقد عادت نعم الدنيا جميعها إلى العدم[٢٧]. كما طلب الحسيني من الأجيال الانتقال من حدود الأماني إلى العمل للمزيد. ولقد أحدثت «مذكرات دجاجة» ضجة وردود فعل واسعة من النقاد والمهتمين برصد الحركة الأدبية في فلسطين وتاريخها، ففي حين عدّها بعضهم من الأعمال الروائية الريادية، التي تعبر عن واقع مرحلة حرجة من تاريخ القضية الفلسطينية [٢٨]، وأنها لا تعدو كونها من الأدب الجميل، الذي حمل فكرة فلسفية، في قالب قصصي معبِّر[٢٩]. فيما أيد الحسيني نفسه هذا الرأي، ومال إليه، فقد كرر، في غير مناسبة، أن القضية لم تخطر بباله وهو يكتب تلك المذكرات، إلا أن البعض رأى بأنه من العسير قبول فكرة التجريد المثالية هذه، حيث إن الحسيني نفسه قد ألمح إلى شيء من ذلك، حين قال: «إن المذكرات كانت أكبر تحدٍّ يواجه به الانتداب البريطاني، حين كان موظفًا

في الحكومة». وقال، في موضع آخر: «إنها كانت ثمرة تأمل في مجتمعنا، في تلك الفترة التي شهدت صراعًا مريرًا بين القيم الخلقية والاجتماعية»[٣٠]. لذا عمد د. عبد الرحمن ياغي إلى التوفيق بين الرأيين السابقين، مبررًا ما أشار إليه بعضهم من تناقض في الرموز المستخدمة، فقد اتخذ فلسفته الوجدانية وسيلة لدرس شؤون مجتمعه، السياسية، والاجتماعية، وفي أسلوب شعري ممتع، صوَّر به كثيرًا من العواطف التي يرتبط بها أفراد المجتمع[٣١].

فيما قدَّم صاحبنا سلسلة الطرائف للأطفال، بالاشتراك مع عدد من المؤلفين، ونشرت في القدس، عام ١٩٤٧، وهدفت إلى تقديم ثقافة متطورة للطفل، كمده بقيم تتفق مع عالمنا الجديد، وتنمي مداركه ووعيه، وتصله بماضيه المجيد. أما «**هل الأدباء بشر؟**»، فكتاب صغير الحجم، ضم خواطر ومقالات متفرقة كتبها الحسيني في أوقات مختلفة سبقت النكبة، ثم جمعها، وطبعها في بيروت، عام ١٩٥٠م. وأطلق عليها عنوان الموضوع الأول، وتحدث في بعض المقالات عن بعض الظواهر الاجتماعية، والنفسية في حياة الأدباء، وفي مقالات أخرى عن الحركة الأدبية في فلسطين. وكانت الفكرة التي انطلق منها في هذه المقالات أن تربة هذا الوطن لم تجدب يومًا، ولم ينقطع عطاؤها، رغم توالي المآسي، والنكبات، وخرج الحسيني بأسماء لامعة كثيرة، وآثارها، ردًّا منه على المشتغلين من الأجانب بالدراسات العربية، الذين توهموا بأن تربة هذا الوطن الغالي أقفرت من الأدب، والأدباء. كما حذر الحسيني، مرارًا، فنحن والله مستهدفون في مجال العلم، تمامًا، كما نحن مستهدفون في مجال السياسة، والاقتصاد، وهل يمكن أن ينتظم في هذه الدنيا عرف يزدري العقل، ويتحرر من الحياء؟ حاشا لله، فهذا العصر التلمودي الصهيوني لن يستطيع أن يقف في وجهه إلا من تحصَّن بالعقل والأصالة العربية، بعيدًا عن الخزعبلات، والتبريرات السياسية الاستسلامية [٣٢].

عن الأدب، أيضًا، كتب الحسيني «**المدخل إلى الأدب العربي المعاصر**» (١٩٦٣)، «**الأدب والقومية العربية**»، و«**النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين**» (١٩٦٧)، «**في الأدب العربي الحديث**» (١٩٨٢)، فضلًا على جملة من الأبحاث والمقالات منها: المسيح في القرآن، أثر المعري في الأدباء المعاصرين، قصيدتان توأمان[٣٣].

أما مؤلفات الحسيني في الفكر الإسلامي، فذات أثر بالغ في هذا المجال، أهمها: «**الإخوان المسلمون (كبرى الحركات الإسلامية)**»، صدرت منه ثلاث طبعات (١٩٥٢، ١٩٥٤، ١٩٥٥) عن دار بيروت، وفي الطبعة الثالثة، ألحق الحسيني الكتاب بمقدمة موجزة، قال فيها: «لم يكتب هذا الكتاب للإخوان، ولا عليهم، وإنما كتب لتأريخ الدعوة، تأريخًا علميًّا محضًا، منذ بدايتها، إلى الوقت الحاضر».

ورأى الحسيني بأن «دعوة الإخوان المسلمين تستحق هذا التأريخ، لأسباب ثلاثة: **الأول**: أوجدت الحركة أثرًا في التاريخ الحديث، لا يجوز أن يُهمل، **الثاني**: أنها جزء من التاريخ الحديث، **الثالث**: ظاهرة لها أصول في التاريخ الإسلامي، وهي متأثرة بالمدرسة السلفية الحديثة[٣٤]. كما ترجم الحسيني كتاب «**الإسلام في نظر الغرب**» (١٩٥٣) إلى العربية، ونشره في بيروت، وفيه تناول الحسيني أوجه الحضارة الإسلامية قديمًا، والسبل الكفيلة برفعة المسلمين، وارتقائهم، إلى كتابه «**أبحاث في ماضي المسلمين وحاضرهم**» (١٩٦٦) بالقاهرة. فضلًا عن الأبحاث والمقالات التي تناولت الآثار الإسلامية في بيت المقدس، بعد الفتح العمري، والجانب الإسلامي في القضية الفلسطينية، وشخصية الرسول في القرآن الكريم. أما كتبه التربوية، فمنها: «**رأي في تدريس اللغة العربية**»، و«**فن إنشاد الشعر العربي**» وغيرها، بجانب الأبحاث في المجال التربوي، مثل: تعريب التعليم العالي الجامعي، التربية أولًا. فيما جاءت

كتبه في التاريخ، مثل: «**عروبة بيت المقدس**» (١٩٦٩)، «**أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي**» (١٩٨٧)، «**خليل السكاكيني الأديب المجدد**» (١٩٨٧)، كما كانت له أبحاث ومقالات عدة في هذا المجال، منها: «**أبو العلاء المعلم**»، و«**خليل السكاكيني**»، و«**إلياس طعمة**»، و«**فلسطين وإسرائيل**»، و«**من ذكريات العمر**»[٣٥] أما القومية، فقد أعطاها الحسيني مساحة واسعة من كتاباته، فهذه كتبه: «**علماء المشرفيات في إنجلترا**» (١٩٤٠)، و«**عودة السفينة**» (١٩٤٥)، و«**عروبة بيت المقدس**» (١٩٦٨)، و«**قضايا عربية معاصرة**» (١٩٧٨)، أما كتاب «**أزمة الفكر العربي**»، الذي صدر في بيروت عام ١٩٥٤، فبحث إلى جانب أزمة الفكر العربي العروبة والآراء المتضاربة حول استبدال حروف لاتينية بالحروف العربية، فضلًا على مشاكل وقضايا العالم العربي، وأنظمته، وقال الدكتور الحسيني: لهذه الأزمة مظاهر عدة، أهمها: «الحيرة، الارتجال، فقدان العقلانية، فقدان الجرأة والحرية الفكرية». كما وضع الحسيني فاصلًا بين ما نسميه أُمة عربية وبين ثقافة عربية، فالأولى، مظاهر لم تستكمل نموها، والثانية، حقائق راسخة تمخضت عنها القرون، وزادتها الأيام ثباتًا ورسوخًا، فلا بد من اتخاذ الخطوة العلمية، وهي التقريب بين الشعوب العربية، وتلك العناصر الخالدة في الحضارة العربية، وهذا ما عناه الحسيني بـ «**التعريب**»، فرأى أنه كما ابتعد المسلمون عن الإسلام، وروحه، ومُثُله الكريمة، ابتعد العرب عن الثقافة العربية، ومُثُلها، وأدبها. وفي الكتاب نفسه فرق الحسيني بين فصل الدين عن الدولة، وفصل الدين عن المجتمع، فالدين لا ينفصل عن المجتمع، كما لا تفصل الروح عن الجسم الحي. فيما أكد الحسيني بأن الإسلام الذي يُتهم بالجمود، ظلمًا، قد مهَّد السبيل عن طريق القياس، والاجتهاد، والإجماع، والمصالح المرسلة إلى هذا التطور في كلتا الناحيتين في شؤون الدين والدنيا معًا، كما أكد الحسيني في كتابه هذا: «أن القومية لم تفرِّق بين المسلم والمسيحي (العربي)، لا في القديم، ولا في الحديث، فإسهام المسيحيين العرب في القومية العربية، والنهضة العربية، الحديثتين ظاهر ظهورًا يراه أبعد الناس، والإسلام، من حيث هو دين، اعتبر النصارى أقرب مودة إلى المسلمين من سائر أصحاب الأديان»[٣٦].

أشار الحسيني إلى تعريب العرب، في كتاب «**أزمة الفكر العربي**»، وكانت خير دراسة للحسيني، تعريب العرب (١٩٥٠)، وفيها قال الحسيني: «الحال في البلاد العربية، اليوم، تثبت إثباتًا قاطعًا؛ لأن عروبة العرب الحاضرة تدل على أن عروبتهم ليست متمكنة من نفوسهم، وأنها ليست متساوية في مختلف البيئات العربية».

كما حصر الحسيني القواعد التي نعوِّل عليها في اختيار سُمْك العروبة، أو رقتها في الشعوب العربية في خمس قواعد: **الأولى**: تمسك الشعب بمجموعه، بلغته، ومبلغ تذوّقه أدبه، **الثانية**: اعتزاز الشعب بالتاريخ العربي، وتفهمه أسراره وواقعه، **الثالثة**: تعلقه بتقاليد أمته، وسجاياها المتوارثة، المصفاة مما يشينها، **الرابعة**: حرصه على التراث القومي من نظم وسياسة ودين، **الخامسة**: الدفاع عن شرف العروبة، والذود عن الحِمى، وخرج الحسيني بنتيجة مؤداها: «أن الشعوب العربية تبدو شعوبًا عربية، اسمًا، مع اختلاف ظاهر في بعض البيئات العربية». ولذلك وجد الحسيني أن العرب بحاجة إلى تعريب أكثر ما هم بحاجة إلى توحيد، وخلص للدعوة إلى «ضرورة أن يعرف بعضنا بعضًا، معرفة حقيقية، وعقد المؤتمرات والأسواق الأدبية والعلمية، فضلًا على توسيع آفاق اللغة العربية، وتيسيرها، وتشذيبها، وإلى العناية بالكتاب العربي، حتى يصبح بمقام الرغيف عند كل فرد. غير أن الحسيني أكد على ضرورة التعاون الثقافي بين الأقطار العربية كافة، للاستفادة والتعاون، فقال: «إذا صدر كتاب في بغداد، يجب أن تُعنى به القدس»[٣٧].

من هذا المنطلق، كانت للحسيني بعض المؤلفات اللغوية الثرية، مثل كتاب «**الأساس في قواعد اللغة العربية**»، الصادر عن دار بيروت، عام ١٩٥٤، فضلاً على الأبحاث والمقالات، ومنها: «**معجم القرآن الكريم**» (١٩٤٣)، «**ألفا معربة**» (١٩٦٤)، «**أسماء بيت المقدس**» (١٩٦٨)، «**أسماء فلسطين**» (١٩٧١)، «**الزط**» (١٩٧٢)، «**تعريب الألفاظ العلمية**» (١٩٧٤)، «**اللغة الصامتة**» (١٩٨٠)، «**خطأ القياس**» (١٩٨١)، «حاشية علي كناشة» (١٩٨٢)[٣٨].

وبعد، فإن الدكتور إسحاق موسى الحسيني قد أعطى للأدب والثقافة العربية الكثير، كما أسهم في تطوير بعض المبادئ التربوية، لتنسجم مع متطلبات العصر الحديث، والحسيني شخصيته جمعت جوانب متعددة، فهو وطني، قومي، تربوي، أدبي، بمسحة إسلامية، ولكنه ابتعد قدر المستطاع عن السياسة؛ أغلب الظن لأنه رأى بأن لها حيثيات، ومبادئ يصعب اختراقها.

* * *

هوامش الفصل الخامس:

(١) **يوم القدس**، أبحاث الندوة الخامسة، القدس مدينة العلم ٩ - ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤، عمان، قاعة المركز الثقافي الملكي، مديرية المكتبات والوثائق الوطنية (انظر: د. صالح الحمارنة، شخصيات مقدسية، د. إسحاق موسى الحسيني، ص ١٩٨ ـ ١٩٩).

ـ د. حسن عبد الحميد سلوادي، د. **إسحاق موسى الحسيني، عميد الأدب العربي الفلسطيني بين الوفاء والذكرى**، ط ١، القدس، مركز إحياء التراث العربي في الطيبة، ١٩٩١، ص ١٨.

(٢) د. إسحاق الحسيني، **تعلمت من الناس**، رام الله، مؤسسة اليرموك، د. ت، ص ٣٠.

ـ انظر أيضًا: يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٨.

(٣) د. إسحاق الحسيني، حياتي المدرسية، **الفجر الأدبي (القدس)**، ع ٣٣، ص ١٥ (أورده: سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩).

(٤) الحسيني، تعلمت... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠

أورده: سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١.

(٥) للمزيد انظر: **المصدر نفسه**، ص ٢١.

- يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٨ ـ ٢٠٠ .

- يعقوب العودات (البدوي الملثم)، **من أعلام الفكر والأدب في فلسطين**، عمان، ١٩٧٦، ص ١١٧.

(٦) يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠١.

(٧) **المصدر نفسه**، ص ٢٠١.

سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٨) انظر: العودات، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٧ .

- يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٣ .

(٩) انظر: **المصدر نفسه**، ص ٢٠٠ .

-- العودات، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٧.

- سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥.

(١٠) **المصدر نفسه**، ص ٢٧

- العودات، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١١٧ .

- د. مهدي علام، **مجمع اللغة العربية في ثلاثين عامًا**، القاهرة، مجمع اللغة العربية، د. ت، ص ٤٤ .

- يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠١.

(١١) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩.

- العودات، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٧.

(١٢) للمزيد، انظر: الحسيني، تعلمت... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤ .

- جميلة أبو لبن، **الدكتور إسحاق موسى الحسيني سيرته وآثاره**، عمان، رسالة ماجستير مخطوطة بالجامعة الأردنية، ص ١٥ ، ٢٤ .

(١٣) يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٢ .

(١٤) للمزيد انظر: الحسيني، تعلمت... **مصدر سبق ذكره**، ص ٦ .

- د. إسحاق الحسيني، **هل الأدباء بشر؟**، بيروت، دار العلم للملايين، د. ت، ص٤.

(١٥) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٣-٤٥.

(١٦) د. إسحاق الحسيني، **الأدب والقومية العربية**، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية العالية، ١٩٦٦، ص ٢٠.

(١٧) د . إسحاق الحسيني، من الأديب الناجح، **الشراع** (بيروت)، ع٣٤، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨١م، ص٧.

(١٨) الحسيني، الأدب ...، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٥ .

(١٩) د. عبد الرحمن ياغي، **أكتب عن الدكتور إسحاق الحسيني**، من كتاب مجموعة بحوث عربية مهداة إلى الأستاذ الدكتور إسحاق الحسيني، من بعض طلبته وعارفي فضله، ص ١٤١.

(٢٠) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص٥١- ٥٣ .

(٢١) يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٠٢.

- د إسحاق الحسيني، **رأي في تدريس اللغة العربية**، القدس، المطبعة التجارية، ١٩٣٧، ص ٤٦-٤٨.

(٢٢) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٤-٥٥.

(٢٣) د. الحسيني، تعلمت...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٩.

(٢٤) ياغي، **مصدر سبق ذكره**.

(٢٥) د. الحسيني، تعلمت...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٩.

(٢٦) العودات، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٢ .

(٢٧) أبو لبن، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٠ .

- د. محمد السعدي فرهود، **الدكتور إسحاق الحسيني والنقد المعاصر**، من مجموعة بحوث عربية.

- ياغي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤١-١٤٧.

-يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٠- ٢١٤.

(٢٨) ياغي، **مصر سبق ذكره**، ص ١٤٨.

- د. أحمد أبو مطر، **الرواية في الأدب الفلسطيني**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠، ص ٣٦.

- د. تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون في القرن العشرين**، بغداد، مركز الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١، ص٧٩.

(٢٩) د. جورج قنازع، **إسحاق الحسيني والوصايا العشر**، من مجموعة بحوث عربية مهداة إلى الدكتور إسحاق الحسيني بمناسبة بلوغه الثمانين، القدس، مطبعة الشرق، د. ت.

(٣٠) الحسيني، تعلمت...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٧ ، ٧٣.

(٣١) ياغي، **مصر سبق ذكره**، ص ١٤٨.

(٣٢) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٧-٦٨.

- يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٣- ٢٠٤.

(٣٣) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٨-٧٣.

(٣٤) د. إسحاق الحسيني، **الإخوان المسلمون، كبرى الحركات الإسلامية الحديثة**، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٣، المقدمة.

(٣٥) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٨-٨٣.

(٣٦) يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٧- ٢٠٨، ٢١٠.

- الحسيني، **أزمة الفكر العربي**، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٤، ص٢٠٥- ٢٠٦.

(٣٧) يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، الصفحات نفسها.

(٣٨) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٩-٩٠ .

obeikan.com